الاستمرار في الزمن ، ولما كان الاسم قد اكتسب مرونته من هذا الاستمرار فاصبح قادرا على ان يرتبط بالزمن في مختلف حالاته الحقوا صيغة المضارع به واجروها مجراه في الاعراب لاشتراكها معه في الاستمرار الزمني بدلالتها على الحال والاستقبال .

نستطيع اذن القول بان الاستمرار في الزمن هو الاساس الذي بنيت عليه صيغة المضارع وان هذه الصيغة تنظر فقط الى ناحية الاستمرار في الزمن لا الى الجهة فيه ، وكذلك نستطيع القول بان الانقطاع في الزمن هو الاساس الذي بنيت عليه صيغة الماضي غير منظور فيه الى الجهة ايضا .

وهذا يعني ان العرب لم يقسموا الزمن من حيث الجهة الى ماض وحاضر ومستقبل وانما نظروا اليه من حيث الصيرورة فقسموه الى منقطع ومستمر واختاروا للزمن المنقطع صيغة ساكنة جامدة هي ما نسميه صيغة الفعل الماضي وهي صيغة تدل على الزمن المنقطع في اي جهة كان ماضيا او حاضرا او مستقبلا ، ولما كان انقطاع الزمن بالمضي اكثر وادوم غلبت هذه الصيغة على الماضي ، وكذلك لما كان استمرار الزمن يغلب ان يكون في الحاضر المستقبلي او المستقبل غلبت هذه الصيغة على الحاضر المستقبلي والمستقبل ، وقد روعي في اختيار الصيغة التي تدل على الزمن المستمر ان تكون صيغة مرنة متحركة بالاعراب حتى تتلاءم مع صورة الزمن المستمر..

وللتدليل على ذلك ننظر اولا الى صيغة الزمن المنقطع وهي التي تسمى صيغة الماضي من ناحية الاستعمال فنجد انها لاتدل ابدا الا على الانقطاع بصرف النظر عن الجهة ، يقول الفند الزماني :

صفحنا عن بني دهل
وقلنا القوم اخوان
عسى الايام ان يرجعـ
ـن قوما كالذي كانوا
فلما **صرح** الشر
فامسى وهو عريان

ولم يبق سوى العدوا
ن **دناهم** كما دانوا
مشينا مشية الليث
غدا والليث غضبان (13)

فصفحنا ، وقلنا ، وصرح ، ودنا ، ومشينا ، هي افعال حدثت في زمن مضى منظور اليها من ناحية انقطاع الزمن بها .

وقوله تعالى «**اقتربت** الساعة **وانشق** القمر» القمر: 1

« **اقترب** للناس حسابهم » الانبياء : 1 « **اتى** امر الله فلا تستعجلوه » النحل : 1 « **اذا جاء** نصر الله والفتح » النصر : 1 « انا **فتحنا** لك فتحا مبينا » الفتح : 1 ـ فاقتربت ، وانشق ، واقترب ، واتى ، وجاء ، وفتحنا هي افعال سوف تحدث في زمن مقبل ، منظور اليها من ناحية انقطاع الزمن بها فهي ستحدث في اسرع مما يتصور وتحقق حدوثها مؤكد كتأكد حدوث الشيء الذي ينقطع به الزمن في الماضي .

وهناك امثلة في القرآن توضع فيها صيغة الزمن المستمر والزمن المنقطع جنبا الى جنب مع اتحاد الجهة مما يؤكد أن الاستمرار والانقطاع هو الهدف من ايراد هذه الصيغ يقول الله تعالى « ويوم **ينفخ** في الصور ففزع من في السموات ومن في الارض » (14)

فكلا الفعلين سوف يحدث في جهة واحدة هي جهة المستقبل ، ولكن احدهما وهو ينفخ اخذ صيغة المضارع ، والثاني وهو ففزع اخذ صيغة الماضي ، ولا يمكن ان يكون لهذه التفرقة من سبب او دلالة الا اذا كان منظورا اليها من ناحية الزمن ، فنظر الى النفخ من ناحية استطالة الصوت في الزمن للتركيز على تأثيره الرهيب وهو الفزع الذي ينتاب البشر فجاة فور النفخ في الصور ، فاذا نظر الى الزمن من ناحية الانقطاع فقط جاءت الصيغة في نفس الموقف في كلا الفعلين في صورة الماضي يقول تعالى « ونفخ **في الصور فصعق** من في السموات ومن في الارض » (15)

ويتضح ذلك المعنى جليا في قوله تعالى « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، **وآتينا**

---

13) حماسة ج 1 ص 4ـ5

14) سورة النمل : 87

15) سورة الزمر : 68

عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » . البقرة 87 ، ... فالافعال: آتينا ، وقفينا ، وأيدنا ، وجاءكم ، وتهوى ، واستكبرتم ، وكذبتم ، وتقتلون كلها من ناحية الجهة وقد وقعت في الماضي وجاء التعبير فيها كلها بصيغة الماضي ما عدا اثنين جاءا بصيغة المضارع هما : تهوى ، وتقتلون . فاذا قلنا ان تقتلون جاءت لما تتطلبه الفاصلة القرآنية من انسجام صوتي، وان القصد هو قتلتم كما ذهب ابراهيم انيس (16) فلماذا عدل عن هوت نفوسكم الى تهوى ، الا ان يكون القصد هو ابراز الاستمرار الزمني في هذين الفعلين، خصوصا وانه يخاطب اليهود المعاصرين للرسول والذين لم يشتركوا قطعا في هذه الافعال كما نظر الى الانقطاع في بقية الافعال فكأنه يقول لهم فعلتم كذا وكذا وعملنا كذا وكذا ولكن اهواءكم تغلبت عليكم ؛ فسيرة آبائكم ما تزال تسير معكم . وفي قولهم كذبتم وتقتلون نجد انه فرق بينهما في الانقطاع والاستمرار فجعل زمن القتل مستمرا ليركز على بشاعة هذا الجرم الذي ارتكبوه ، وانه اذا كان التكذيب يتصور وقوعه من الناس ، فان قتل الانبياء جريمة بشعة لا تتصور الا من قوم وصل بهم تحكم الهوى وتحجر القلب الى اقصى المدى واستمر ذلك منهم كأنه جزء من طبيعتهم .

وبالنسبة لصيغة المضارع نجد الامر على نفس الصورة التي وجدناها بالنسبة لصيغة الماضي ، فيدل المضارع على الزمن المستمر ايا كانت الجهة .

فاذا كان الفعل وقع واستمر فترة عبر عنه بصيغة المضارع. فمما وقع واستمر في الماضي وعبر عنه بصيغة المضارع قول الشميذر الحارثي :

فلسنا كمن كفتم تصيبون سلة
فنقبل فيها او نحكم قاضيا (17)

فالفعل من ناحية الجهة وقع في الماضي ولذلك جاء التعبير عن الجهة بلفظ كنتم ولكن الفعل استمر من ناحية الزمن فجاء التعبير عنه بلفظ تصيبون، ونقبل ، ونحكم .

وفي قول قطري بن الفجاءة :

فلقد ارانى للرماح دريئة
من عن يميني مرة وأمامي
حتى خضبت بما تحدر من دمي
أكتاف سرجي او عنان لجامي
ثم انصرفت وقد اصبت ولم اصب
جذع البصيرة قارح الاقدام(18)

فهذه الاحداث كلها وقعت في الماضي ، وعبر عما نظر فيه الى انقطاع الزمن بصيغة الماضي مثل خضبت تحدر ، انصرفت ، اصبت وما نظر فيه الى استمرار الزمن عبر عنه بصيغة المضارع مثل ارانى ، واصب . ونقطة التركيز على الاستمرار في كلا الحدثين لا تخفى ، وذلك لان استمرار تعرضه المستمر للرماح، واستمرار سلامته مع ذلك دليل واضح على شجاعته وجلده وشدة فتكه .

يقول النحويون ان لما ولم تنقلان الفعل الحاضر الى الماضي ، فلذلك تقول لم يخرج زيد فتدخلها على لفظ المضارع والمعنى معنى الماضي الا ترى انك تقول لم يقم زيد امس ولو كان المعنى كاللفظ لم يجز هذا كما لم يجز تصوير زيد امس وكذلك لما بمنزلة لم في الجزم قال الله تعالى (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) فجزمت كما تجزم لم (19) والسؤال هنا هو : لماذا تنقل لما ولم الفعل الحاضر الى الماضي اذا لم يكن هناك هدف من وراء هذا النقل ؟ ولم لا يعبر عن الماضي المنفي بصيغة الماضي المنفي فنقول ما خرج زيد، وما قام زيد امس وما علم الله الذين جاهدوا منكم وهي صيغ اكثر سهولة وادق تعبيرا عن المضي ؟

ان هناك مطلبا آخر وراء المضي في الزمن وهو الاستمرار فيه وهو الذي كان يقصده العرب حين يضعون صيغة المضارع مكان صيغة الماضي فهم لا يقصدون من (لم يخرج زيد ، ولم يقم زيد امس)

---

16) من اسرار اللغة انيس 159
17) حماسة ج 1 ص 27
18) حماسة ج 1 ص 31
19) شرح المفصل لابن يعيش ج 2 ص 41

مجرد الاعلام عن وقوع الفعل فى الماضى وانما التأكيد على ان (عدم الخروج وعدم القيام) قد استمرا فى الماضى ، ويتضح ذلك بجلاء من صيغة الآية التى اوردها ابن يعيش وهى (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) ، فالآية تتكلم عن امتحان المؤمنين ، واختبار اسلامهم لربهم فقد ابتلاهم بالهزيمة فى موقعة احد فقتل من قتل وجرح من جرح ، فحزن المسلمون فنزلت هذه الآيات لتؤكد ان الايمان ليس دعوى بغير بينة ، وان الله لن يعطى صاحب الدعوى اجره حتى يؤكدها بصدقه وبعمله فقال لهم « **ولا تهنوا ولا تحزنوا** وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين، ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما **يعلم** الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » . (20) فهى كلها افعال منظور فيها الى الانقطاع والاستمرار بصرف النظر عن الجهة فهو ينهاهم عن الوهن والحزن فى اى وقت . ويتضح ذلك بجلاء فى قوله تعالى **ان يمسسكم ومس** وكل منهما قد حدث فى الماضى فقد مس القوم قرح فى بدر من عام مضى وقد مسكم البلاء فى احد وما تزال آثاره قائمة بكم، وذلك ليعلم الله علما مؤكدا صحة ايمان الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء يظلون احياء فى جنته . وحين يتكلم عن الحقائق المقررة يقول لا يحب الظالمين ، فهو لم يحبهم فى الماضى ، ولم يحبهم فى أي وقت ، ثم يقول لهم ان هذا البلاء انما كان الهدف من ورائه تثبيت ايمان المؤمنين وتقويته حتى يستمر قويا صلبا ، وليهلك فى الوقت نفسه الكافرين ، فهو لن يسكت عنهم ، وهزيمتكم لن تستمر ، ومهما ظن الكافرون بانفسهم السلامة فمصيرهم هو الهلاك.ثم يقول لهم ام حسبتم فيعدل عن صيغة المضارع الى صيغة الماضى ليشير الى انقطاع حسبانهم بوقوع البلاء وليقول لهم ان سر انقطاع حسبانهم وخيبة املهم انما يكمن فى كونهم اسسوا هذا الحسبان على اساس غير سليم ، فلما اراد ان يؤكد ضرورة استمرار العمل الموجب لجنته قال: « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين» ، فهو اذن بلاء مستمر واختبار لا ينقطع لمجرد دعاوى الايمان ، حتى يوجب اجرها بالصدق ، بذلك قضت سنته تعالى.

وكما يطرد ذلك فى القرآن الكريم يطرد ايضا فى الشعر القديم .

يقول امرؤ القيس :

رأى أرنبا **فانقض يهوي** امامه
اليها **وجلاها** بطرف ملتلق
فتلت له صوب ولا **تجهدنه**
فيدرك من اعلى القطاة فتزلق
فاد برن كالجزع المفصل بينه
بجيد الغلام ذي القميص المطوق
فادركهن ثانيا من عنانه
كغيث العشى الاتهب المتودق (21)

فهذه كلها احداث جرت فى الماضى ، ولكن التعبير عنها جاء بصيغتى الزمن المنقطع اى الماضى، والزمن المستمر اي المضارع معا فكلمات : راى ، وانقض ، وجلا ، وقلت ، وادبر ، وادرك ، افعال وردت بصيغة الماضى وكلمات يهوى ، تجهد ، يدرك وردت بصيغة المضارع مراعاة لانقطاع الزمن او استمراره فى الفعل نفسه .

وكذلك قوله :

خرجت بها تمشى تجر وراءنا
على إثرنا بذيل مرط مرحل (22)

وقوله :

تصد وتبدى عن اسيل **وتتقى**
بناظرة من وحش وجرة مطفل (23)

وقوله :

اصاح ترى برقا **اريك** وميضه
كلمع اليدين فى حبى مكلل
يضيء سناه او مصابيح راهب
امال السليط بالذبال المفتل (24)

وقوله :

ومر على القنان من نفياته
فانزل منه العصم من كل منزل

---

20) سورة آل عمران : 142
21) الديوان ص 173 ، ص 174
22) المعلقة
23) المعلقة
24) المعلقة

وتيماء لم يترك بهـا جـذع نخلة
ولا اطما الا مشيدا بجنـدل (25)

فكلمات خرج ، وامال ، ومر وانزل ، وردت بصيغة الماضى وكلمات مثل ترى ، وارى ويضىء ، ويترك ، وردت بصيغة المضارع مع انها كلها احداث وقعت فى الماضى وذلك مراعـاة لانقطاع الزمـن واستمراره .

والامثلة على ذلك كثيرة جدا فى الشعر القديم نكتفى منها بما ذكرناه.وكذلك اذا كان الفعل قد وقع وما زال مستمرا فانه يعبر عنه بصيغة المضارع؛يقول جابر ابن الثعلب الطائي :

ومن يفتقر فى قومه **يحمـد** الغنى
وان كان فيهم واسط العم مخو لا
ويزري بعقل المرء قلـة مـا لـه
وان كان اسرى من رجال واحولا

ويقـول طـرفـة :

ارى الموت يعتام الكرام ويصطفي
عقيلة مـال الفاحش المتشـدد
ارى العيش كنزا ناقصا كل ليلـة
وما تنقص الايام والدهر ينفد (26)

وقـولـه :

ارى الموت اعداد النفوس ولا **ارى**
بعيدا غدا ما اقرب اليوم من غد (27)

وقـول زهيـر :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعـش
ثمانين حولا لا ابالك يسأم (28)
رايت المنايا خبط عشواء من تصب
تمتـه ومـن تخطىء يعمـر فيهرم
ومن لم **يصانـع** فى امـور كثيـرة
يضرس بانيـاب ويوطـأ بمنسـم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتـق الشتـم يشتـم
ومن يك ذا فضل فيبخـل بفضلـه
على قومه يستغن عنـه ويذمـم
ومن يوف لا **يذمم** ومـن **يهد** قلبـه
الى مطمئـن البـر لا **يتجمـجـم**
ومن هاب اسباب المنايـا ينلنـه
وان يرق اسباب السماء بسلـم
ومن **يجعل** المعروف فى غير اهلـه
يكن حمـده ذمـا عليـه **ويندم**
ومن **يعص** اطراف الزجـاج فانـه
يطيع العوالي ركبت كـل لهـذم
ومن لم **يذد** عن حوضـه بسلاحـه
يهدم ومن لا يظلـم النـاس **يظلـم**
ومن **يغترف** يحسب عدوا صديقـه
ومن لا يكرم نفسه لا يكـرم (29)

فى هذه الابيات نجد تفرقة واضحة — فيمـا يسمى فى اللغة الانجليزية بالحقائق — تبين ما يستمر فى الزمن ، وما ينقطع استمراره فيه ، فالافعال التى تعبر عن حقائق ثابتة لا تتغير بتغير الازمان يأتى التعبير عنها دائما بصيغة المضارع ، وكذلك يستعمل طرفة فى التعبير عنها الفعل ارى ليؤكد طبيعة الاستمرار فيها . وهو يرى ان الموت يعتام ويصطفى فى كل وقت، وهو يرى أن العيش ينقص وينفد فى كل وقت ، وان الموت اعداد النفوس فى كل وقت .

وكذلك يرى زهير ان من يعش ثمانين عامـا يسأم ، هذه حقيقة ثابتة ومستمرة ، وهو يرى ان المنايا من تصب تمت ، ومن تخطىء يعمر فيهرم. هذه حقائق ثابتة ومستمرة ، وهو يرى ان من لا يصانع يضرس ، ويوطأ ، ومن **يجعل** المعـروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم ، ومن يك ذا فضل فيبخليستغن عنه ويذمم . وكذلك من يـوف لا يذمم ، ومن يهد لا يتجمجم ومن يجعل يكن ويندم ، ومن يعصى يطيع ، ومن لم يذد يهدم ومن لا يظلـم يظلم ، ومن يغترف يحسب ومن لا يكرم لا يكـرم . فهذه كلها حقائق ثابتة ومستمرة جاء التعبير عنهـا بصيغة المضارع المستمر ، ونلاحظ ان زهير يعدل احيانا عن صيغة المضارع الى الماضى حينما لا يقصد

---

25) المعلقة
26) المعلقة
27) المعلقة
28) المعلقة
29) المعلقة

الى تاكيد الاستمرار . كما جاء فى قوله سئمت ، وهاب وذلك لانه لم يقصد الى التركيز على استطالة زمن السأم او الهيبة ، وانما قصد الى بيان وقوعهما فقط بالنسبة اليه، ولذلك حين اراد ان ينبه الى ملازمة السأم عاد الى استعمال صيغة المضارع فقال يسأم ، وكذلك الحال فى بقية افعال المضارع التى تدل على حقائق ثابتة مثل يجعل ، يفر ، يضرس ، يصانع يتق ، يشتم ، .. الخ .

والامثلة على ذلك فى الشعر القديم لا تحصى.

فاذا أريد التعبير عن حدث سيقع ويستمر فى المستقبل جاء التعبير عنه ايضا بصيغة المضارع ،

يقول عمر بن ساس :

فان كنت منى او **تريدين** صحبتى
فكونى له كالسمن ربت لـه الادم
وان كنت **تهوين** الفراق ظعينتى .
فكونى له كالئئب ضاعت له الغنم(30)

ففى تريدين وتهوين افعال ستقع فى الحال وستستمر فى المستقبل جاء التعبير عنها بصيغة المضارع مراعاة للاستمرار فى الزمن .

ويقول طرفة فى معلقته :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالاخبار من لم تزود
ويأتيك بالاخبار من لم تبع لـه
نباتا ولم تضرب له حين موعد (31)

فكلمات ستبدى ، ويأتيك تشير الى افعال ستقع فى المستقبل على سبيل الحتم بالنسبة لشخص لا يثق فى احتمال ذلك او فى امكانه وهو المخاطب بهذه الابيات ايا كان .

وسيظل وقوعها محتما لانها من حقائق الحياة التى اشرنا اليها فيما سبق — وان روعى فيها توجيه الخطاب للمستقبل مراعاة لحال الشخص الذي لم يجرب نوع هذه الاحداث بعد ، ويقول حاتم الطائى:

سأنصره ان كان للحق تابعا
وان جار لم يكثر على التعطف (32)

فكلمات سأنصره وجار ، ويكثر افعال سوف تقع فى المستقبل ومع ذلك وقع التعبير عنها بصيغتى الماضى والمضارع مراعاة لانقطاع الزمن واستمراره، فهو سينصره ولن يتوقف عن نصره ، وان جار. ولم يركز الشاعر فى هذا الفعل على استمرار الزمن لانه يقصد الى مجرد وقوع الفعل وهو الجور ، ولذلك استعمل فعلا يدل على مجرد وقوع الحدث ثم عاد فركز على استمرار الزمن فى المضارع المنفى بلم تاكيدا على انه لن ينفك عن التعاطف معه وان جار .

ويقول النابغة :

فانك سوف تحلم او **تناهى**
اذا ما **شبت** او شاب الغراب (33)

فكلمات تحلم او تناهى يتعلق وقوعها واستمرارها فى المستقبل بوقوع افعال تسبقها هى شبت وشاب ، ومع ان الافعال كلها يفترض وقوعها فى جهة واحدة هى المستقبل الا ان الشاعر نظر فى بعضها الى استمرار الفعل فجاء بها بصيغة المضارع وهى تحلم وتناهى ، بينما نظر فى بعضها الى مجرد الوقوع فقط وهى شبت وشاب فجاء بها بصيغة الماضى ، ومما يؤكد هذا الادعاء وبتويه ان الافعال التى جاء بها الشاعر بصيغة الماضى هى بطبيعتها افعال استمرارية لان الشيب اذا وقع لازم صاحبه واستمر معه طول حياته ، ومع ذلك جاء الشاعر بهذا الفعل شاب وشبت بصيغة الماضى لانه لا يريد ان يؤكد استمرار الشيب بصاحبه وانما يشير الى مجرد حدوثه فقط .

ومن ذلك قول زهير :

سيأتى آل حصن حيث **كانوا**
من الثلاث باتية ثناء (34)

فكلمتا سيأتى وكانوا فعلان يتحدان فى الجهة وهى المستقبل ومع ذلك جاءت احداهما بصيغة المضارع والثانية بصيغة الماضى .

---

30) حماسة 24/1
31) معلقة
32) الديوان ص 42
33) مختار ص 120
34) مختار ص 193

ومنه قول المثلم بن رياح بن ظالم المرى :

مساكفيك جنبى وضمه ووساده
واغضب ان لم تعط بالحق اشجعا (35)

فكلمات مساكفيك واغضب وتعط افعال روعى فيها الاستمرار فعبر عنها الشاعر بصيغة المضارع .

ومنه قول عنترة :

سياتيكم عنى وان كنت نائيا
دخان الطندى دون بيتى منود (36)

فكلمتا سياتيكم ، وكنت جاءتا بصيغة المضارع مراعاة للاستمرار .

ومنه قول زهير :

على رسلكم انا سنعدو ورامكم
فتمنعكم ارماحنا او سنعذر (37)

فكلمات سنعدو ، وتمنعكم ، وسنعذر جاءت بصيغة المضارع مراعاة للاستمرار وهكذا ..

نخرج من ذلك بان العرب قد وضعوا صيغة للزمن فى حالة تعلقه بالفعل منظورا اليه من ناحية الانقطاع والاستمرار لا من ناحية الجهة من ماض وحاضر ومستقبل كما فعلت اللغات الآرية الاخرى ، اى ان اللغة العربية لم تنظر الى الزمن نظرة منطقية كما نظرت اليه هذه اللغات ، وانما نظرت اليه نظرة وجودية ، اى من ناحية الصورة التى يكون بها متعلقا بالزمن منقطعا او مستمرا ، وقد تنبه المستشرقون الى هذه الحقيقة فقسموا الحدث فى اللغات السابقة ومنها العربية الى قسمين : حدث تام وقع وانتهى ، وحدث ناقص لم يتم ولم ينته . ثم جعلوا تلك الصيغة التى يسميها النحاة من العرب بالفعل الماضى خاصة بالاحداث التى تمت وانتهى وقوعها وتلك الصيغة التى نسميها بالمضارع للتعبير عن احداث لم ينته وقوعها (38) وقد جاء هذا التقسيم فى العربية اقرب الى حقيقة علاقة الفعل بالزمن ، والى طبيعة الزمن نفسه من التقسيم المنطقى من ناحية الجهة والذى عرفته اللغات الآرية وذلك لان تقسيم الزمان من ناحية الجهة الى ماض وحاضر ومستقبل كما يقول بن حسون « تقسيم فلسفى افتراضى يعتبر قياسيا لكمية تجربة فى الرياضة ، او الطبيعة او الفلسفة ولكنه من الناحية الوجودية زمن لا وجود له على هذه الصورة لان الزمان صيرورة ،وديمومة تبدأ من الماضى ، وتستمر فى المستقبل دون ان تتوقف فى زمان اسمه الحاضر لان الحاضر زمن لا يتصور وجوده الا اذا تصورنا سكون الزمن عند لحظة منه تسمى الحاضر ، وقد كان ذلك متصورا فى ظل الفلسفات الاغريقية القديمة التى تصورت الزمن على انه امتداد يمكن ان تقطعه لحظات سكون (39) « ان الزمن فى التصور الحديث ليس لحظة تحل محل لحظة اخرى » والا لما كان هناك سوى الحاضر ولما كان هناك امتداد للماضى فى الحاضر ولا تطور ولا ديمومة محددة بالذات . ان الديمومة هى التقدم المستمر للماضى الذي ينجر فى المستقبل ويتضخم كلما تقدم .(40) لقد اصر النحاة على فرض فكرة الزمن على اساس انه امتداد هندسى قابل للتقسيم ، فقسموه الى ماض وحال ومستقبل ، على التصور العربى للزمان على انه صيرورة وحركة مستمرة لا يمكن تصور الفعل فى علاقته به الا فى احدى حالتين ، وهما اما انقطاع او استمرار بصرف النظر عن الجهة ، ولقد تفطن بعض المتكلمين الى أن الزمن الحالى لا وجود له على الحقيقة ، ولكن وجهة نظرهم ضاعت امام الرغبة العارمة عند جمهرة النحاة فى التقسيم المنطقى للزمن .

يقول ابن يعيش « وقد انكر بعض المتكلمين فعل الحال، وقال ان كان قد وجد فيكون ماضيا، والا فهو مستقبل وليس ثم ثالث » (41) .

يمكن القول بان فكرة الزمن على هذه الصورة فى اللغة العربية ارقى بكثير من فكرة الزمن فى اللغات الجرمانية واللاتينية ، والتى لم تنقطع الى حقيقة الاستمرار فى الزمن الا فى عصور متاخرة جدا. يقول « فندريس » استعملت اللغات الجرمانية مثلا للتعبير عن الزمن الاستمراري الذي لم يكن فيه ، اسم

---

35) حماسة 106/1
36) مختار ص 206
37) مختار ص 204
38) اسرار اللغة ، انيس ص 154 .
39) التطور الخالق 14/23
40) نفس المصدر والصفحة
41) المفصل 4/7

الفاعل مصحوبا بفعل الكون . فاننا نجد فى الالمانية العليا المتوسطة تراكيب مثل seken sekench sint der arime heienich (كل اولئك الذين يرونني) البيت 673) او (All die mich der riter mit tem der leve van endist

الفارس .. الذى معه يسافر الاسد ..) ((Wein) بيت 2986) هذه الحاجة نفسها هى التى بعثت على نشوء التركيب الانجليزي : (I was going, I am going) الذى شاع شيوعاً هائلا ، ويلاحظ فى فرنسية القرن السادس عشر وجود محاولة لخلق استمرارى من هذا القبيل بواسطة الفعل (être : كان) أو (aller : ذهب) ولكنه اندثر بعد ان حكم عليه (مالرب Malherbe ومیناج (Menge بالاعدام يقول « cette prison qui va vous renfermer ويقول لا فونتين : je m'en vais désaltérant اطفىء ظمئى) (50)

هذا التصور العربى السليم للزمن ، وهذا الاختبار الدقيق للصنيع الذي يعبر عن علاقة الفعل به يكشف عن عدة مسائل اهمها ان فيها تأكيدا لما سبق ان ذكرناه من مرور هذه اللغة بفترة تطور حضارى طويل ، انه يؤكد تطورا ممائلا فى العقلية العربية من ناحيتى الادراك وقوة الملاحظة ، وسنعرف فى دراستنا للايجاز الى اىمدىتد امتد هذا التصور، كما سندرس فى بقية الابحاث المقبلة كيف اصبح ادراك الزمن باعتباره صيرورة خلاقة عاملا اساسيا فى تطورهم وتصورهم الاخلاقى والدينى والعلمى .

ب ـ فى الايجاز :

الايجاز فى العربية هو الخصيصة التى تتعلق بها شبهة الطبيعة التركيبية فى دراسات المستشرقين ومن تابعهم من الدارسين العرب . ونريد هنا ان نتعرف على حقيقة هذا الايجاز ، وعما اذا كان هو الاسلوب الوحيد الذى عرفته العربية ، وذلك من خلال نصوص من القرآن والحديث وكتب الاخبار التى تمثل الى ، جانب الشعر القديم (الجاهلى) مصادر العربية ، وبعدها نتكلم عن دلالة الايجاز الفكرية .

حقيقة الايجاز وحدوده :

عرف ابو هلال العسكرى الايجاز بقوله « الايجاز قصور البلاغة على الحقيقة وما تجاوز مقدار الحاجة فيه فضل داخل فى باب الهزل والخطل، وهما من اعظم ادواء الكلام وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصنعة » وقد يعترض على هذا التعريف بانه مدرسى ليس من اللازم ان يكون مطابقا لواقع الحال ، فحين يكون الايجاز نتيجة لطبيعة تركيبية فى العقلية او اللغة او فى كليهما معا كما سبق ان ذكرنا يكون الايجاز قسرا فرضته الطبيعة ولا يكون توخيا للجودة فى الكلام ويقتضى ذلك ان تتأكد للعرب دراية بامكانيات اخرى فى التعبير غير الايجاز وان يكون ما عرف من ايجازهم وافيا بهذا الشرط : ونحن على اي حال لا نتمسك بهذا التعريف ابتداء لاننا نريد ان نصل الى ذلك من خلال دراسة النصوص نفسها فلنسأل اذن عن حد الايجاز لا عن حقيقته او معناه ، فما هو حد الايجاز ؟

حد الايجاز :

القصر ـ اى الاجمال ـ والحذف.

والقصر تقليل الالفاظ وتكثير المعانى ، مثل قوله تعالى «ولكم فى القصاص حياة» ومنه المثل السائر فى الشعر او فى كلام العرب ، كما هو فى القرآن والحديث ايضا مثل قول طرفة :

ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالاخبار من لم تزود

ومثل قولهم : الصيف ضيعت اللبن ، وسبق السيف العذل .

ومثل قول الرسول عليه السلام « اياكم وخضراء الدمن ...

« فمعانى هذا الكلام ـ كما يقول العسكرى اكثر من الفاظه ، واذا اردت ان تعرف ذلك فحلها وابنها بناء آخر ، فانك تجدها تجيء فى اضعاف هذه الالفاظ » (52) اما الحذف فهو حذف بعض اجزاء الجملة دون الاخلال بمعناها ، وذلك كان تحذف المضاف

---

50) اللغة ، فندريس ترجمة الدواخلى ص 149/148
51) كتاب الصناعتين للعسكري ص 172
52) نفس المصدر ص 187

وتقيم المضاف اليه مقامه وتجعل الفعل له يقول الله تعالى « واسأل القرية » أي أهلها .

ومنها ايقاع الفعل على شيئين وهو لاحد هما ويضمر للاخر فعله ، وهو قوله تعالى « فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، معناه : وادعوا شركاءكم ، ومنها ان يأتي الكلام على أن له جوابا فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب : لقوله عز وجل : « ولو ان قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى فلله الامر جميعا » أراد لكاد هذا القرآن ، فحذف . وقد عد العسكري أوجها كثيرة للحذف نكتفي منها بما ذكرناه (53)

وهنا نقف على اول دليل حاسم ضد شبهة الطبيعة التركيبية وذلك قبل أن نتجاوز بدراستنا الايجاز نفسه فقد رأينا أن الايجاز يشتمل على ضربين لا على ضرب واحد اولهما الاجمال وهو الذي يمكن ان تكون له صلة بالطبيعة التركيبية وهو القصر او الاجمال لانه يدل بالقليل من الكلام على الكثير من المعنى دون أن يحذف شيء من بنية الجملة نفسها ، بمعنى ان الجملة هنا موجزة بحكم بنائها النحوي ودلالتها المعنوية معا فقوله تعالى « لكم في القصاص حياة » ، جملة تامة مكونة من مبتدأ وخبر وجار ومجرور لا يوجد فيها شيء ناقص من بنيتها الاساسية او من توابعها ومع ذلك فهي قابلة للتحليل الى كثير من الجمل مثل : اذا قتل انسان آخر متعمدا دون أن يكون لهذا القتل موجب يبرره وذلك بان لا يكون دفاعا مشروعا عن النفس او في حرب معلنة من الامام الشرعي ، او تنفيذا لحد من حدود الاسلام باذن الامام فان قتل هذا القاتل اذا لم تقبل فيه الفدية ولم يعف عنه اولياء القتيل — ضرورة تستلزمها حماية المجتمع وضمان امنه .

ويمكن ان يقال في الاجمال على هذا الاساس ان الالفاظ استخدمت فيه كاوعية وان المعنى قد ركز فيه تركيزا شديدا ، ولم يفصل او يبسط وتديقال وذلك شيء نترك الاجابة عليه قليلا — ان هذا من نتيجة الطبيعة التركيبية التي لا تسمح لاصحابها ببسط الكلام وتفصيله على هذا الوجه .

اما الحذف فهو شيء آخر تماما ، لان الحذف لا يمكن أن يكون نتيجة عجز عن بسط الكلام فالمتكلم يترك بعضا من اجزاء الجملة اختيارا بدليل انه لا يخل مع الحذف بشرط صحة الكلام مما يؤكد انه على وعي بمكان الحذف وانه لو شاء لاتى بالمحذوف في مكانه ، ولكنه عدل عنه التماسا للاجود من الكلام ، ولذلك واضح في وجوه الحذف التي اوردناها فلاتعيد ما ذكرنا، فلنلق اذن نظرة على القرآن والحديث في ضوء هذا المفهوم .

1 — القرآن :

لا اريد ان افصل ما يعرفه الجميع من الفارق بين أسلوبي مكة والمدينة في القرآن ، ومن ان الاسلوب المكي هو أسلوب الدعوة التي تلجأ الى التاثير على الوجدان وان اسلوب المدينة يغلب عليه طابع التعليم والجدل وان السورة القصيرة ، والجملة القصيرة هي طابع القرآن المكي وان الجملة الطويلة والسورة الطويلة هي طابع القرآن المدني ذلك شيء يعرفه الجميع ولكن الذي احب ان انبه عليه ان طابع الايجاز في الجملة القصيرة والسورة القصيرة هو طابع الايجاز بالحذف وليس بالاجمال ، فالجملة التي تقال للحكمة ، او للمثل السائر لا تعثر عليها الا على الندرة على طول القسم المكي مثل « قتل الانسان ما أكفره » ومثل «بل الانسان على نفسه بصيرة » ومثل « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » بل لو استعرضنا القرآن كله استعراضا استقصائيا لما خرجنا منه باكثر من بضع عشرات من الجمل المجملة التي تطلق مثلا سائرا ، واذا فالاسلوب الاساسي المستعمل من اساليب الايجاز هو اسلوب الايجاز بالحذف لا بالقصر ، وهذا الاسلوب ، كما قلنا لا علاقة له بالطبيعة التركيبية لان موضع الحذف معروف من القائل والمستمع ولو شاء احدهما لرد المحذوف الى مكانه وسنورد أمثلة كاملة على اتصال الكلام — على شرط العرب — اتصالا تاما في هذا النوع من الاساليب وورود المعنى فيها مستقصى مستوفى بضرب من التفصيل الخاص الذي يجعل الزمن جزءا من بنية الجملة ، أو يجعل الكلمة المتروكة فيها بديلا عن الكلمة المذكورة .

---

53) كتاب الصناعتين ص 189/181

على ان ذلك لم يمنع حين يقتضى المقام السرد القصصى او تفصيل المعنى ان يعدل القـرآن عن الحذف الى التفصيل ، بل ان دراسة القصة فى القرآن تكشف عن ان القصة الواحدة ترد فيه فى عدة مستويات مختلفة من الحذف والتفصيل فقد ترد القصة فى جزء من آية ، وترد نفسها فى آية كاملة ثم ترد مفصلة بعض التفصيل بل ثم ترد بتفصيل اكثر وهذا حسب حاجة الكلام ، وقصة يوسف مثال نموذجى على ان اللغة العربية قادرة على السرد حين تريد السرد ، وقادرة على التفصيل حين تريد التفصيل ، فنحن نجد كثيرا من مشاهد القصة ترد بتفصيلها الدقيق ، ولما كنا لا نستطيع ان نقدم دراسة كاملة فى هذا الموضوع فاننا نكتفى هنا باحد المشاهد من هذه القصة :

مشهد الغواية : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الابواب وقالت هيت لك . قال : معاذ الله ، انـه ربي احسن مثواي انه لا يفلـح الظالمـون .

ولقد همت به ، وهم بها ، لولا أن راى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين .

واستبقا الباب ، وقدت قميصه مـن دبـر ، وألفيا سيدها لدى الباب قالت : ما جزاء من اراد باهلك سوءا الا أن يسجن او عذاب اليم .

قال : هى راودتنى عن نفسى .

وشهد شاهد من اهلها ؛ ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما راى قميصه قد من دبر ، قال : انه من كيدكن ان كيدكن عظيم ، يوسف اعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين » يوسف 29/13 .

اما فى حين يكون الامر امر حجاج او بيان ، او تشريع فان السرد والتفصيل يكون هو الاصل ولهذا طالت السور المدنية حين اقتضت ظروف التعبير ذلك ، ونكتفى هنا بآيات الدين مثلا على اللغة العلمية التقنينية التحليليـة .

يقول تعالى « يايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها او ضعيفا، او لا يستطيع ان يمل هو ، فليملـل وليه بالعـدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامراتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ، ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا، ولا تسأموا ان تكتبوه صغيرا او كبيرا الى اجله ، ذلكم اقسط عند الله ، واقوم للشهادة ، وادنى الا ترتابوا ، الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها واشهدوا اذا تبايعتم ،ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم.وان كنتم على سفر ، ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ، فان امن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن امانته ، وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم » البقرة 282 ــ 283.

2 ــ الحديـث :

يختلف اسلوب الحديث عن اسلوب القرآن ، وللعلماء حديث طويـل مضطرب حول طبيعة هـذا الاختلاف ومداه (54) والذى نتصوره فى وجه هـذا الاختلاف هنا هو ان القرآن نزل من عند الله معجزة لغوية وبلاغية يتحدى العرب ، ولذلك لم يكن هدفه متصور على الابانة والافصاح ، وانما كان ممتدا الى الجمال الفنـى باعتباره هدفا اساسيا تتحقق بـه المعجزة ويمتد به التاثير الوجدانـى الـى اقصـى مداه ، ولا يعنـى هذا ان القرآن قد اخـل بشرط الابانة والافصاح حين يكون التعليم هو الاصل كما هو الشان فى المسائل التشريعية ، اما الحديث فهو كلام الرسول نفسه لم يكن تحديا وانما هو يؤدي اساسا وظيفة التعليم ولذلك لم يكن الجـمـال الفنى هدفا اساسيا له ، وان كان ذلك لا يعنى انه اخل بشرط الجمال الفنـى حين يكون الهدف الوصول بالتاثيـر الوجدانـى الى اقصى مداه كما هو الشان فى المواعظ

54)انظر اعجاز القرآن للباقلانـى ص 194 وما بعدها واعجاز القرآن للرافعى ص 366 وما بعدها.

ولذا غلب على أسلوب الحديث السرد ، والترسل ، والتبسط كما غلب على أسلوب القرآن التشخيص والتصوير والحذف .. الخ.

اي أن استعمال الاساليب الفنية ، وطابع السرد والترسل ، والتبسط هو اسلوب الجانب التشريعي من الحديث ، وهو يشكل الركن الاساسي منه ، فالمعاني هنا على قدر الالفاظ ، والالفاظ على قدر المعاني لان الدقة هي الشرط الذي تستلزمه لغة التشريع والتعليم .

ونضرب لذلك مثلا ببعض احاديث التشريع :

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا الى اليمن قال « انك تاتي قوما من أهل الكتاب فادعهم الى شهادة ألا اله الا الله وانى رسول الله فان هم اطاعوك لذلك فاعلمهم ان الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فان هم اطاعوك لذلك فاعلمهم ان الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان اطاعوك لذلك ، فاياك وكرائم اموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » ، رواه الجماعة .

ويتخذ تعليم الرسول عليه السلام فى الغالب ، صورة السؤال ، والجواب حتى اذا لم يكن هناك سؤال وجواب ؟ عن ابى بكر قال « خاطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر فقال : اتدرون أى يوم هذا ، قلنا : الله ورسوله اعلم ، فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال : اليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ، قال : اي شهر هذا ؟ قلنا الله ورسوله اعلم ، فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه فقال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى . قال : اي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه . قال : اليست البلدة ؟ قلنا : بلى . قال : فان دماءكم واموالكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا الى يوم تلقون ربكم ، الا هل بلغت ، قالوا : نعم ؟ قال : اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ اوعى من سامع فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم وجوه بعض » رواه احمد والبخارى . وفى وثيقة الصلح مع قريش عام الحديبية تتضح لنا صورة اللغة التى كانت تكتب بها المعاهدات والتى كانت تستعملها قريش فى معاهداتها ، واحلافها ، ومصالحاتها ، وهى من املاء الرسول عليه السلام وهى : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على انه من اتى محمدا من قريش من غير اذن وليه ، رده عليهم . ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ،وان بيننا عيبة مكفوفة ، وانه لا اسلال ، ولا اغلال ، وانه من احب أن يدخل فى عهد محمد وعقده دخل فيه ، ومن احب أن يدخل فى عهد قريش وعقدهم دخل فيه . وانك ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وانه اذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلتها باصحابك ، فاقمت بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب ، والسيوف فى القرب ، لا تدخلها بغيرها » ، ابن هشام 317/2 ، 318.

ونضرب مثلا : للغة السرد القصصى فى قصتين من قصص الحديث النبوي هما قصة اصحاب الغار ، وقصة الابتلاء .

القصة الاولى « اصحاب الغار » :

روى البخاري ومسلم عن مالك بن صعصعة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينما ثلاثة نفر يمشون فاووا الى غار فى جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم ، وقال بعضهم لبعض : انظروا اعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا بها لعل الله يفرجها عنكم ، فقال احدهم : اللهم انه كان لى والدان شيخان كبيران وامراتى ، ولى صبية صغار ارعى عليهم فاذا ارحت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت احلب ، فجئت بالحلاب فقمت عند راسهما اكره ان اوقظهما من نومهما واكره ان أسقى الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دابى ودأبهم حتى طلع الفجر، فان كنت تعلم انى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء . ففرج الله منها فرجة فراوا منها السماء . وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة احببتها كاشد ما يحب الرجال والنساء وطلبت اليها نفسها فابت حتى آتيها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها فلما وقعت بين رجليها قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم الا بحقه، فقمت عنها — فان كنت تعلم انى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة ففرج لهم وقال آخر :

اللهم انى كنت استاجرت اجيرا بفرق ارز فلما قضى عمله قال : اعطنى حقى ، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه ، فجاء فقال : اتق الله ولا تظلمنى حقى ، قلت : اذهب الى تلك البقر ورعاءها فخذها فقال : أتق الله ولا تستهزىء بى ، فقلت : انى لا استهزىء بك ، خذ تلك البقر ورعاءها فخذه وذهب به ، فان كنت تعلم انى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج لنا ما بقى ، ففرج الله ما بقى » .

القصة الثانية : «الابتلاء»

ان ثلاثة نفر من بنى اسرائيل ابرص واقرع واعمى ، اراد الله ان يبتليهم فبعث الله اليهم ملكا فاتى الابرص فقال : اي شيء احب اليك قال لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قذرنى الناس قال : فمسحه فذهب قذره واعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . قال فاي المال احب اليك ؟ قال الابل او قال البقر ــ شك اسحاق ، الا ان الابرص أو الاقرع ، قال احدهما الابل وقال الآخر البقر ــ قال : فاعطى ناقة عشراء ، فقال : بارك الله لك فيها . قال : فاتى الاقرع فقال : اي شيء احب اليك ؟ قال شعر حسن ويذهب عنى هذا الذي قذرنى الناس ، قال فمسحه فذهب عنه ، واعطى شعرا حسنا قال : فاي المال احب اليك ؟ قال البقر . فاعطى بقرة حاملا ، فقال بارك الله لك فيهما . قال : فاتى الاعمى فقال : اي شيء احب اليك؟ قال أن يرد الله الى بصري فابصر به الناس ، فقال : فمسحه فرد الله اليه بصره قال : فاى المال احب اليك ؟ فقال : الغنم فأعطى شاة والدا فانتج هذان وولد هذا . قال : فكان لهذا واد من الابل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ثم انه اتى الابرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد تقطعت بى الحبال فى سفري ، فلا بلاغ لى اليوم الا بالله ثم بك ، اسالك بالذي اعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن والمال ، بعيرا اتبلغ عليه فى سفري . فقال الحقوق كثيرة ، فقال له : كاني اعرفك ألم تكن ابرص يقذرك الناس ، فقيرا ، فاعطاك الله ، فقال : انما ورثت هذا المال كابرا عن كابر . فقال : ان كنت كاذبا فصيرك الله الى ما كنت .

قال : واتى الاقرع فى صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا . فقال ان كنت كاذبا فصيرك الله الى ما كنت .

قال : واتى الاعمى فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفري فلا بلاغ لى اليوم الا بالله ثم بك، اسالك بالذي ردعليك بصرك شاة اتبلغ بها فى سفري فقال كنت اعمى فرد الله بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فو الله لا اجهدك اليوم شيئا اخذته لله ، فقال : امسك مالك فانما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك (رواه البخاري ومسلم عن ابى هريرة ، رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)

لغة الاخبار :

هناك لغة اخرى غير لغة القرآن والحديث والشعر والمثل هى لغة الموسوعات الاخبارية والتاريخية ، لا ادري لماذا لم يفحصها القائلون بالطبيعة التركيبية ، وهى لغة تقوم بحكم موضوعها على التفصيل لا على الايجاز ، لقد كانت هذه اللغة موجودة قبل الاسلام بطريق الرواية الشفهية ، فلما بدأ عصر التدوين تم عن طريقها تدوين تاريخ الاسلام والتاريخ السابق عليه سواء أكان تاريخ ادب وشعر او تاريخا اساسيا ، فقد استقدم معاوية عبيد بن شرية الجرهمى من صنعاء . فكتب له كتاب الملوك ، واخبار الماضين (55) كما دون بعض الصحابة كتبا فى السيرة منهم عروة بن الزبير بن العوام (ــ 92 هـ) وعنه اخذ ابن اسحاق والواقدي والطبري ، ومنهم ابان بن عثمان بن عفان (ــ 105 هـ) ووهب بن منبه اليمنى (ــ 110 هـ) وشرحبيل بن سعد (ــ 123 هـ) وابن شهاب الزهري (ــ 121 هـ) . وعاصم بن عمر بن قتادة (ــ 120 هـ) وعبد الله بن ابى بكر بن حزم (ــ 135 هـ) وكان هؤلاء الاربعة ممن عنوا باخبار المغازي وما يتصل بها (56).

ومنهم موسى بن عقبة المتوفى سنة 141 هـ ، ومعمر بن راشد المتوفى 150 هـ ، ومحمد بن اسحاق المتوفى فى سنة 152 هـ.

55) ابن هشام 1 ص 4

56) ابن هشام 625/1

وجاء بعد هؤلاء غيرهم منهم زياد التكاتي المتوفى سنة 183 هـ ، والواقدي صاحب المغازي المتوفى سنة 207 هـ ، ومحمد بن سعد المتوفى سنة 230 هـ ، وابن هشام المتوفى سنة 218 هـ (57) .

ولم تكن لغة الاخبار مقصورة على رواية التاريخ السياسي فقط او ذكر ايام العرب وانما كانت تشمل ايضا الاخبار الادبية والقصص التي تقوم عليها الامثال ، والمناسبات التي ترتبط بها الاشعار ، وقد استمر التقليد العربي القديم وهو تقليد الرواية الشفهية وهي التقليد المعتمد حتى بعد عصر التدوين ، ولم يكن العلماء يطمئنون لخبر الا اذا كان مرويا باسناده عن طريق الرواية ، وقد حاول علماء اللغة والادب ، وضع شروط للرواية واللغة والاخبار ، لضبط نقلها عن العرب الصرحاء ، وذلك على نسق شروط الجرح والتعديل التي وضعها علماء الحديث .

ولا يهمنا هنا ان نناقش الاخبار نفسها تاريخية كانت او ادبية، وانما الذي يهمنا الاسلوب الذي رويت به هذه الاخبار في كتب التاريخ وكتب الادب . ونذكر هنا كنموذج لهذا الاسلوب في اخبار التاريخ رواية ابن اسحاق لخبر رضاعة الرسول عليه السلام . قال ابن اسحاق : وحدثني جهم بن ابي جهم مولى الحارث ابن حاطب الجمحي ، عن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب ، او عمن حدثه عنه قال : كانت حليمة بنت ابي ذؤيب السعدية ، ام رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ارضعته، تحدث: انها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء ، قالت : وذلك في سنة شهباء ، لم تبق لنا شيئا . قالت : فخرجت على اتان لي قمراء في بياضها كدرة ، معنا شارف (ناقة مسنة) لنا ، والله ما تبض (ما ترشح) بقطرة ، وما ننام ليلنا اجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على اتاني تلك فلقد ادمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وتمخضا ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امراة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتاباه ، اذا قيل لها انه يتيم ، وذلك انا انما كنا نرجو المعروف من ابي الصبي ، فكنا نقول ، يتيم او ما عسى ان تصنع امه ! فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امراة قدمت معي الا اخذت رضيعها غيري ، فلما اجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله اني لاكره ان ارجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه ، قال لا عليك ان تفعلي ، عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة . قالت فذهبت اليه فاخذته ، وما حملني على اخذه الا اني لم اجد غيره قالت : فلما اخذته ، رجعت به الى رحلي ، فلما وضعته في حجري اقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي وشرب معه اخوه حتى روي ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي الى شارفنا تلك ، فاذا انها لحافل ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعنا فبتنا بخير ليلة قالت : يقول صاحبي حين اصبحنا : تعلمي والله يا حليمة ، لقد اخذت نسمة مباركة : قالت : فقلت : والله اني لارجو ذلك قالت : ثم خرجنا وركبت اتاني ، وحملته عليها معي فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء ومن حصرهم ، حتى ان صواحبي ليقلن لي : يا بنة ابي ذؤيب ويحك ! اربعي علينا ، اليست هذه اتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فاقول لهن : بلى والله انها هي ، فيقلن : والله ان لها لشانا ... الخ (58)

ونموذج من اخبار الادب يروي المفضل الضبي قصة المثل العربي (تلك بتلك) فيقول « وزعموا ان عمرو بن جدير بن سلمى بن جندل بن تهشل بن دارم ابن مالك ان حنظلة كانت عنده امراة معجبة له جميلة وكان ابن عمه يزيد بن المنذر ابن سلمى بن جندل بها معجبا ، وان عمرا دخل ذات يوم بيته فراى منه ومنها شيئا كرهه حتى خرج من البيت فاعرض عنه ثم طلق المراة من الحياء منه فمكث ابن جدير ما شاء الله لا يقدر يزيد بن المنذر على ان ينظر في وجهه من الحياء منه ولا يجالسه ، ثم ان الحي غير عليه وكان فيمن ركب عمرو بن جدير قلما لحق بالحبل ابتدره فوارس فطعنوه وصرعوه ثم تنازلوا عليه ورآه يزيد بن المنذر فحمل عليهم فصرع بعضهم واخذ فرسه واستنقذه ،

---

57) ابن هشام 6/1

58) ابن هشام 163/1 ، 164

ثم قال له اركب وانج فلما ركب قال يزيد (تلك بتالك) فهل جزيتك فذهبت مثلا » (59)

ذلك اسلوب آخر من أساليب العربية كما جاءت به النصوص التى رويت بنفس لغة عرب ما قبل الاسلام ، وقبل ان يقال انها قد تاثرت باي لغات او افكار غيرت من طبيعتها وعدلت من اساليبها . وهو اسلوب التفصيل والتحليل الذي يقال انه من سمات اللغات الآرية بحكم طبيعتها التحليلية ، وان اللغة العربية قد حرمت منه بحكم طبيعتها التركيبية . وهو الاسلوب الذي عرفه البلاغيون ووضعوه تحت باب (الاطناب) وقال اصحاب الاطناب : المنطق انما هو بيان والبيان لا يكون الا بالاشباع ، والشفاء لا يقنع الا بالاقناع ، وافضل الكلام ابينه ، وابينه اشده احاطة بالمعانى ، ولا يحاط بالمعانى احاطة تامة الا بالاستقصاء (60) والاستقصاء هو التحليل ، وقالوا « البلاغة الايجاز فى غير عجز ، والاطناب فى غير خطل»(61) .

ولنلق نظرة سريعة على النصوص التى اوردناها لتمثيل هذا الاسلوب ، ــ لنعرف ان كانت وافية بشرط البسط والتحليل .

فى مشهد الغواية ، وهو مشهد واحد ماخوذ من قصة طويلة خصصت لها سورة طويلة من سور القرآن هى سورة يوسف ، والتى تدور حول قصة يوسف وتبدأ من طفولته الى القائه فى الجب الى اخذه الى بيت العزيز الى تعرضه لغواية امراة العزيز ثم القائه فى السجن ، ثم خروجه منه امينا على بيت المال ، ثم حضور اخوته وتعرفهم عليه ، فى سلسلة طويلة من الاحداث والمشاهد والازمنة والامكنة فى بناء فنى محكم ، كأدق واحكم ما تكون قصة فى ادب اي لغة عرفت القصة وبرعت فيها ــ نجد فى هذا المشهد واقعة الاغواء مبسوطة بتفصيل دقيق ، فهو لم يختصر لنا المشهد فى جملة ، وانما فصله بدقائقه وخفاياه ، وما دار فيه من شد وجذب وحديث حتى الفاظ المراودة نفسها ... هيت لك .

وفى آيات الدين نجد ان جملة النداء تفتتح بيا ايها الذين آمنوا ثم لا تختم الا بعد اكثر من صفحة طويلة من صفحات القرآن ، فى جملة واحدة طويلة كاطول ما تكون الجمل تتخللها جمل قصيرة تسهم كلها فى تفصيل معنى واحد فقط هو (كتابة الدين) ، وليس هنا مجال تفصيل الاساليب المتنوعة التى استعملها القرآن فى قصصه وجدله ، وعرضه لآيات الله .. الخ وهو وحده قاطع الدلالة فى طاقةهذه اللغة وامكانياتها التى لا تقف عند حد .

وفى نصوص الحديث نلاحظ غلبة السرد القصصى واسلوب الحوار ، وتفصيل المعنى على الجانب الاكبر من حديث الرسول عليه السلام على الرغم من ان الرسول عليه السلام قد اوتى جوامع الكلم ، وهو الاسلوب المحكم المركز الذي لم يستسغه الذين لم يتعودوا الا على فهم الاسلوب المفصل الذي لم تعرف لغاتهم غيره .

ففى خطبة يوم النحر نجد معلما يحرص اشد الحرص على تحديد المعنى وبسطه وتفصيله باسلوب الحوار فهو يريد أن يقول لهم (لقد حرمت عليكم القتل والسرقة) هذه الجملة الموجزة قد بسطت بسطا فى حوار طويل يتجاوز عشرة اسطر ، وفى نص الحديبية يصاغ النص بدقة اسلوب المعاهدات الدولية التى لا يترك فيها طرف للاخر فرصة واحدة يؤول فيها النص لحسابه وقد أورد ابن هشام كيف رفض سهيل بن عمرو ان يكتب فى النص محمد رسول الله لان فى هذا اعترافا منهم بنبوته وهو ما يحاربونه عليه وفى قصتى اصحاب الغار والابتلاء نجد نموذجين لقصتين قصيرتين كاملتين بكل مقاييس القصة الحديثة وبشروطها الفنية ، وفى دوران كل منهما على معنى جزئى فى حوار دقيق محكم تنتهى الى لحظة تنوير .

وفى رواية ابن اسحاق لخبر رضاعة الرسول نجد عرضا قصصيا طويلا مسهبا لحادثة واحدة هى حادثة (الرضاعة) .

وحتى الامثال التى يقول احمد أمين انهم عرفوها ولم يعرفوا القصة هذه الامثال لا تروى الا ومع كل مثل قصة ، وسواء أكانت القصة صحيحة او مخترعة فان دلالتها تعنى ان العرب عرفوا القصص بانواعها واقعية ومخترعة ، وقد روينا هنا نموذجا لقصة

---

59) امثال العرب ص 23
60) كتاب الصناعتين ، للعسكري ص 190
61)دلائل الاعجاز لعبد القاهر ص 111 ، 112